اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الثاني

الفصل الأول

وعند ما صحوت في اليوم التالي ، رأيتني بلغت من الانحطاط والدناءة ما جعلني كارهاً لنفسي ، فاستهوتني فجأة فكرة مروعة دفعتني من فراشي فهببت وأنا أصيح بالمخلوقة التي قضيت معها ليلى قائلاً لها : ارتدي أثوابك واخرجي حالاً من هذا المكان

وجلست أحدق بالجدران حتى بصرت بأسلحتي المعلقة على الزاوية . . .

عند ما تترامى فكرة متألمة الى أحضان الفناء فتقدم الروح على الكبائر تشعرها الحركة الآلية للتنفيذ بشيء من الرهبة يصطدم بالارادة فيزعزعها . ومن يهاجم الانتحار يستولى الذعر على أنامله وتتقلص عضلات يده عند ما يحس بصقيع الحديد . وما أقدم إنسان نحو الموت إلا وأحس باحجام الطبيعة عن مجاراته

يصعب على الآن إيضاح ما كنت أشعر به وأنا أنتظر فراغ الصبية من ارتداء أثوابها . وكل ما يمكن لبياني أن يؤديه ، هو أنني كنت أسمع القاذف الناري يقول لي : عد الى رشدك لأدراك ما أنت فاعل

ولقد فكرت مراراً في ما كان سيقع لي لو أن الفتاة أسرعت بمغادرة الغرفة كما أمرتها . لا ريب في أنني كنت سأجد سكوني بعد ثورة الخجل التي ساورتني ، فان الحزن شيء واليأس شيء آخر ؛ ولكن الله قد جمع بينهما كيلا يتسلط أحدهما منفرداً دون رفيقه على النفس المتألمة . فقد كان يكفي أن تخلو غرفتي من هذه المرأة ليضعف يأسي ويقوى حزني بالندم ، وللندامة ملاكها المانع الغفران عن قاتلي النفوس . ولو جرت الحوادث على هذا الوجه ، لكنت وجدت الشفاء وأوصدت بابي دون كل فاحشة بعد أن أبقت لي زيارتها الأولى مثل هذا الخجل وهذا الاشمئزاز

ولكن الحوادث اتخذت مجرى آخر

كنت لم أزل جالساً أنتظر خروج الفتاة وفي نفسي مراجل من الكره والخوف والغضب ؛ أما هي فبقيت منهمكة في ترتيب شعرها وتنسيق طيات ثوبها تبتسم لخيالها في المرآة . ومرت ربع ساعة وأنا أتبع شاردات أفكاري حتى نسيت وجود شخص آخر في غرفتي . وبدت من الفتاة حركة أشعرتني بوجودها ، فانتبهت من غفلتي وزجرتها ، فذعرت وقامت تطلب الباب وهي ترسل إلى قبلة الوداع من بعيد . وفي هذه اللحظة قرع جرس الباب الخارجي بشدة ، فنهضت مسارعاً إلى إخفاء الفتاة في غرفة داخلية ما كدت أدفع مزلاجها حتى دخل ديجنه ومعه رفيقان من شبان الجيرة

إن بعض حوادث الحياة تشبه التيارات المندفعة في عباب البحر ، فهي قضاء أو صدفة

أو عناية الهية ، سمها ما شئت ، ولكنها كائنية وما ينفيها التعارض فى معنى كلمتيها . على أن جميع من يذكرون قيصر ونابوليون لا يفوتهم أن يصفوا كلاً منهما برجل العناية الآلهية ، فكأنهم يرون الأبطال دون سواهم من الناس يستحقون عناية السماء بهم . ولعل الآلهة فى اعتقادهم كالثيران فى حلبة الصراع لا يستهويها سوى الأوشحة الأرجوانية

إن ما ينتج عن أحقر الحوادث فى هذه الحياة وما نبدل فى مسالكنا أتفه الأمور ، لمعضلة تفتح أعمق المهاوى أمام المفكرين

إن أفعالنا لشبيهة بالسهام الصغيرة التى نتلهى بتفويقها نحو الهدف حاسبين أنها ستتجه طوع اختيارنا ومهارتنا ، ولكن لفحة من الهواء تهب على أحدها فجأة فتحوله عن مجراه وترفعه لتدفع به الى مجاهل الآفاق

إننا نشعر بصدمة مروعة عندما يتضح أن كبرياءنا الواثقة من ذاتها ليست إلا شبحاً يتجلى مهارة وعزماً ...

إن القوة نفسها وهى سيدة العالم التى يقبض الانسان عليها وينتضيها سيفاً يناضل به فى معترك البقاء ، انما هى خاضعة ليد خفية تحولها عن الهدف الذى نرى اليه ، فاذا جهدنا منطلق كالسيف خلا أمامه مضربه فرمى بحامله الى الحضيض

هكذا بينما كنت أتجه بكل ارادتى الى تطهير نفسى من أدران خطيئتى ، ولعلنى كنت أتجه أيضاً الى انزال العقاب بنفسى ، رأيتنى ماثلاً أمام تجربة خطرة قدر على أن أسقط فيها

وكان البشر يطفح من وجه ديجنه ، فانطرح على المقعد وهو يتهكم عما ينم عليه وجهى من اضطراب ومن سهد ؛ وما كنت فى حالة أحتمل معها المزاح فرجوته بلهجة جافة أن يعفينى من مزاحه ، فما اهتم لقولى بل تناول الموضوع الذى جاء من أجله ؛ وما جاء إلا ليعلمنى أن خليلتى لم تكتف باتخاذ عشيقين فى آن واحد إذ بلغ عشاقها الثلاثة ، وذلك معناه أنها لم تعامل من خدعتنى لأجله بأحسن مما عاملتنى

قال ديجنه : إن مزاحمى لم يتورع من نشر الخبر ، وقد عرفت باريس كلها بخيانة الخليلة له أيضاً ؛ وما أدركت لأول وهلة معنى هذا القول حتى استمدته الحكاية ثلاث مرات ، وإذ فهمتها صعقت ولم أجد سوى الضحك ألجأ إليه حين أيقنت أن من أحببت امرأة ساقطة ، ولكننى وجمت حين قالت لى نفسى بأننى أحببتها بل لم أزل أحبها إلى الآن

وأيد رفيقا ديجنه ما قاله هو ، فعرفت منهما أن خليلتى كانت فى منزلها وقد التقى العاشقان فيه فكان عراك شديد اشتهر أمره حتى اضطرت المرأة إلى مغادرة باريس هرباً من الفضيحة والعار

وما كان ليخفى علىّ ما يصيبنى من كل هذه المهازل ، إذ أصبحت مبارزتى من أجل هذه المرأة وتولهى بها وجميع مافعلته من أجلها سخرية وهزؤا ، وما كان ما توصف به من أحط الصفات وما يفترض من عهرها فوق ما اشتهر منه إلا ليشعرانى بأننى لم أكن إلا واحداً من عديد مَن تناولهم خداع هذه المرأة الساقطة

ولاحظ الشابان امتعاضى فوقفا عن التمادى فى السخرية ؛ غير أن ديجنه لم يقف إذ كان مصمماً على معاملتى معاملة الطبيب يعالج مريضه بقسوة لابد من الأخذ بها ، وكان يرى لنفسه هذا الحق وهو الصديق الحميم الذى محضنى الود وبادلنى الخدمات العديدة ، وقد اعتقد بحسن نيته فما زاده اضطرابى

إلا إيغالا فى الشدة ليقذف بى إلى السبيل الذى يريده لى ، ولكنه ما لبث أن شعر بنفاد صبرى فاختار السكوت ، وما كان سكوته هذا إلا ليزيد من ثورتى فبدأت بدورى أتحرش بزائرى مستفهما وأنا أتمشى ذهاباً وإياباً فى الغرفة متوقعاً سماع التفاصيل عن هذه الحوادث التى صُعقت لها . وكنت أتكلف الابتسام ثم أتظاهر بالسكون ، فما نجحت محاولاتى ، لأن ديجنه تمنع بالصمت فجأة بعد أن ذهب بثرثرته إلى مدى بعيد ، فكان ينظر إلى بهدوء وأنا أذرع غرفتى بخطواتى كالثعلب أطبق قفصه عليه

وشعرت بعجزى عن بيان ما كان يدور فى خلدى : أصحيح أن تلك المرأة التى تربعت صنماً معبوداً فى صميم فؤادى والتى ذقت من هجرها الأمرين ، تلك المرأة التى حصرت فيها كل هيامى وأردت أن أبكيها مادمت حياً قد استحالت ما بين ليلة وضحاها فاحشة تلوك اسمها ألسنة الشبان ، مهتوكة تعلن بنفسها فضائحها على ملأ الأشهاد ؟

وكنت وأنا استعرض هذه الأمور بذهنى أحس كأن كاوياً يطبع على كتفى علامة العار . وكلما استغرقت فى التفكير كانت تتكاثف الظلمات حولى فأدير رأسى عن جلسائى وأنا شاعر بابتساماتهم ولحاظهم تنصب علىّ لاستجلاء سريرتى

وكان ديجنه يتبع حركاتى وسكناتى وهو لا يجهل إلى أين يتجه بما يفعل لأنه كان يعرفنى ويعرف أننى أقدم على كل أمر وأتجاوز كل حد عا فى من اندفاع إلا حداً واحداً وهو الشرف ؛ لذلك كان يقصد أن يصم الآمى بالعار مستعيناً على عواطفى بتفكيرى

ولما رأى أننى وصلت إلى الحد الذى يريد ، صوب آخر سهم من جعبته إلىّ فقال :

أفما أعجبتك هذه القصة ؟ إليك الآن بآخر فصل منها وهو مسك الختام ؛ فاعلم ، ياعزيزى أوكتاف أن العراك بين عاشقى خليلتك القديمة إنما وقع فى ليلة مقمرة ، وبينما كان كل منهما يهدد الآخر بقطع عنقه ، لاح فى الشارع خيال يتمشى على مهل وقد عرف أن هذا الشبح لم يكن سواك أنت . .

وصحت به : — ومن قال هذا . . من رآنى فى الشارع ، أنا . . ؟

فقال : هى خليلتك بعينها التى رأتك . . ، وهى نفسها أخبرت بذلك وهى تضحك وتؤكد للناس أنك لم تزل هائماً بها وتقضى الليل كالعسس أمام بابها . أفلا يكفيك أن تعلم أنها تعلن هذه الأمور على ملأ الاشهاد ؟

ما تمكنت يوماً أن أكذب فى حياتى ، وفى كل مرة حاولت أن أموه الحقيقة يفضحنى وجهى . ولكن هذه المرة شعرت بتسلط الخجل على من إعلان ضعفى ، فقلت فى نفسى : (ما كنت لأقف أمام بابها لو أننى عرفت أنها تدهورت إلى هذا الحد) واجتهدت أن أقنع ذاتى بأنه لم يكن بامكان أحد أن يرانى ويعرفنى ، فحاولت إنكار الواقع ؛ ولكن الاحمرار علا جبينى فاضحاً أمرى . وحدق ديجنه بى وهو يبتسم فصحت به : — حذار ، يا هذا ، فانك تتجاوز الحد

وذهبت فى الغرفة أذرعها طولاً وعرضاً كمن فقد صوابه ، وحاولت أن أضحك فعصانى الضحك ؛ وأخيراً وجدت نفسى تجاه ستر مهتوك فقلت : — وهل كنت أعلم أن هذه الشقية ...

فانقبضت شفتا ديجنه كأنه يصر على قوله : أفما كان يكفيك ما عرفت ؟ .

وجمت وكان الدم — وقد انقبضت عليه عروق ربع ساعة — يتصاعد إلى صدغىّ نابضاً فيهما فبدأت أكرر القول وأنا لا أعى : — أبينما كنت فى

الشارع غارقاً بدموعى ، كان المراك قائماً بين العاشقين ؟ . . أفى تلك الليلة جرى هذا ؟ .. وقد هزأت بى ! . . لقد سخرت بى ! . هى ؟ .

أما رأيت هذا فى حلم يا ديجنه ؟ أيمكن أن يكون مثل هذا صحيحاً ؟ ...

وكنت وأنا أدفع بهذا الهذيان أشعر بالغضب يساورنى حتى استولت علىّ هزة عنيفة اضطرتنى إلى القعود ويداى ترتعشان .

وقال ديجنه : — ما لك ولهذه الهزلة تقابلها بالجد ، يا أوكتاف ؟ لقد أرهقتك هذه العزلة منذ ثلاثة أشهر ، والأمر ظاهر ، فأنت بحاجة إلى التسلية . تعال لنتناول العشاء سوية وغدا نذهب للتنزه فى الضواحى

وكان يقول هذه الكلمات بلهجة فعلت فى نفسى ما لم تفعله أوجاعى إذ شعرت بأنه يعاملنى معاملة طفل عليل

وبقيت بما كنا أحاول التغلب على ذاتى عناجاتها قائلا : — لقد خدعتنى هذه المرأة فجاءت بعدها النصائح السيئة تعلل قلبى ، وما وجدت لى ملجأ لا فى العمل ولا فى ارهاق قواى ؛ ولم يبق لى وأنا فى العشرين من ربيع الحياة ما يقينى التدهور فى القنوط أو الفساد إلا ذخيرة آلامى الرهيبة أستعيذ بها وقد جاءنى الآن من يريد تحطيمها بين يدى . إنهم لا يوجهون الأهانة إلى حبيبى الآن بل إلى يأسى ، لقد أصبحت سخرية وهى نفسها تهزأ بى ... وأنا أبكى

وما كنت لأصدق بوقوع مثل هذه الفرية ، فكان الماضى بأمره يجتاح تذكارى فأرى ليالى غرامنا القديم تمر أمامى كأشباح تتوالى مترامية على شفير جرف لا قرار له غير صخور مظلمة كالعدم وكنت أسمع قهقهة تتجاوب أصداؤها فوق هذه الهاوية السحيقة تهتف هازئة : — هذا هو جزاؤك . . .

لو جاء هؤلاء الصحاب فقالوا : إن الناس يهزأون بك لكنت أجيبهم : ما لى وللناس ؟ ولكنهم جاءوا يقولون إن خليلتك لا زمام لها ولا عهد

إذاً ، لقد اشتهرت الفضيحة وثبتت بشهادتين ما كان يمكن لمؤديها أن يعلما وجودى على ما كنت عليه دون أن يحدثا عما كانا هما عليه أيضاً ، فماذا أكذب الناس ، وما بوسعى أن أقول لهم ؟ وأين أجد لى ملجأ وقد أصبح قلبى وهو مركز حياتى طللاً متهدماً . وهل لى ما أقول إذا كانت هذه المرأة التى ما كنت لأتردد فى اقتحام أية سخرية وأية ملامة من أجلها واحتمال جبال المصائب تنهار على فى سبيلها ، هذه المرأة التى أحببتها فأحببت سواى فما طالبتها بالنور المنطفىء بل قنعت بأن أقف باكياً أمام بابها لا لشىء الا لألمح فيها وأنا بعيد عنها شبابى المضيّع وقد استحال الى أطياف تذكار ، ولأحفر اسمها دون سواه على لوح قبر دفنتُ فيه جميع آمالى ... هل لى ما أقول إذا كانت هذه المرأة هى نفسها تسخر بى وتهزأ بدموعى ؟ إنها هى نفسها أول من أشار إلى ببنانه قاضياً على بالتشهير أمام من لا عمل لهم إلا الاندفاع فى ميلهم الى الاستهزاء عن يحتقرهم ...

أجل ، هى نفسها من رمى بالاهانة إلى خارجة من شفتين طالما التصقتا بشفتىّ ومن جسد كان روحاً لحياتى بل دماً من دمى ولحماً من لحمى . وهل من إهانة أفظع من هذه الاهانة وما هى الا قهقهة لا رحمة فيها تصفع الجبين الوجيع برشاش نفثاتها ...

وكنت كلما استغرقت فى آلامى يحتدم غضبى وتضطرم ثورتى ، وما أدرى أيصح أن أصف

ما كنت أشعر به من الغضب ، وكل ما أعرف عنه هو شعورى بعاطفة الانتقام . ولكن أنى لى أن أنتقم من امرأة ؟ . . وأين السلاح الذى يمكن لرجل أن ينال به من امرأة لأشتريه بما عز وهان ؟ أية ضربة أوجهها إليها وأنا أعزل حتى من السلاح الذى رشقتنى بناره ؟ وهل لى أن أنازلها بما نازلتنى به من وقيعة واغتياب ؟

ولاح لى فجأة وراء الباب الزجاجى خيال الفتاة التى كانت لم تزل تنتظر الافراج عنها . وكنت نسيتها تماماً ، فنهضت من مقعدى وصحت بأصحابى : اسمعوا . . . لقد أحببت … ، أحببت كمجنون بل كأحمق فاستحققت كل ما ترشقوننى به من عار ؛ غير أننى سأعرض عليكم الآن ما يثبت لكم أننى لم أعد ذلك الأحمق الذى تتوهمون

ودفعت باب الغرفة الصغيرة برجلى فانكشف مخبأ الفتاة وقد لجأت إلى زاوية لتتقى الانظار

وصحت بديجنه : أدخل ، أنت يا مَنْ رآنى مجنوناً لهيامى بامرأة ؛ أنت يا من لا تحب إلا بنات المواخير . . . أفما ترى حكمتك تختال هنا فى هذا الغرفة ؟ سل هذه الحكمة ، سل هذه الفتاة عما إذا كنت قضيت ليلتى كلها تحت نافذة تلك المرأة ، فإنها أخبر من سواها . . . ولكن ليس هذا كل ما أريد أن أقوله ؛ إنك تدعونى إلى تناول العشاء معك هذا المساء وإلى نزهة فى الضواحى غداً ، فأنا أقبل دعوتك ، ولكنك لن تبارحنى منذ الآن ، فلنمضِ النهار سوية ، فأقدم لكم ما تشاؤون من خمر وورق ميسر وأزهار . أنتم لى وأنا لكم ، فلنتعاهد على هذا الشعار ، لقد شئت أن أرفع فى قلبى مزاراً أحنط به غرامى ولكننى الآن سأنزل هذا الغرام إلى قبر أدفنه فيه ولو اضطررت إلى حفر هذا القبر فى صميم فؤادى

قلت هذا وارتميت على مقعد أنظر إليهم يدخلون الغرفة وأنا أشعر بالمسرة الرائعة التى يشعر بها كل إنسان يفرّج كرب الاحتقار عن نفسه ، وإذا ما خطر لانسان أن يعجب لاتخاذى منهجاً جديداً فى حياتى ، فما ذلك الانسان بمطلع على خفايا القلب البشرى ولا هو يعلم أن المرء أن يقف عشرين سنة على تردده ، وليس له أن يتراجع إذا هو دفع بالخطوة الأولى على أى سبيل

الفصل الثانى

ما أشبه من يصاب بالدوار عن يتلمذ للخلاعة والفحشاء ! وما أوائل الدروس إلا رعب تمازجه لذة المشرف مرتجفاً من برج مرتفع على الأعماق

إذا كانت الرذيلة المستترة تنال من نبالة الخلق وتحط من ممزة النفس ، فان فى الخلاعة الصريحة التى تقتحم الهواء الطلق شيئاً من كبر الجسارة تراه متجلياً فى أشد الخلعاء فساداً . إن من يسير تحت جنح الليل ساتراً أنفه باردانه ليلطخ حياته متنكراً نافضاً رياء نهاره خلسة ، إنما هو كبعض الايطاليين الذين يرسلون خناجرهم رشقاً إلى ظهور من لا يجرؤون على منازلته . إن فى الزوايا المظلمة وفى التلاقى تحت جنح الليل ما يشبه كمين الأشرار ، فى حين أنك ترى فى مقتحم الدعارة الصاخبة شيئاً من صفات المحاربين ، فتحسب أنك تشاهد عراكا فى موقعة وتهتف بك الكبرياء قائلاً : إن جميع الناس يفعلون هذا مستترين ، فاهتك الستر أنت وافعل علانية ما يرتكبونه فى الخفاء

وإذا ما ادرع الخليع هذه النجوى ، فان شعاع الشمس لينعكس ملتمعاً على درعه

قيل أن ديموكليس كان يحيا وفوق رأسه سيف معلق ؛ وما حال الخلعاء إلاّ مثل حاله ، فان فوق كل منهم سيفاً يقول : تقدم . . . تقدم أبداً ، فانا معلق بخيط على وشك الانقطاع

وما أرى ما أصور به حياة الخلعاء إلا وصف عجلة يقتمدها فى أعياد المرافع رهط المقنعين ، وهى تخترق الطرق مكشوفة يلعب الهواء بما عليها من مشاعل تنير الوجوه الكالحة ، وعلى هذه العجلة فئة تغنى وفئة تضحك وبين الفئتين تلوح مخلوقات كأنها نساء ، وما هى فى الواقع إلا بقايا نساء عليهن من الأنسانية آثار عافية . ويالهن من نساء يلقين بين القبل كل أنواع الاهانات والتحقير ولا يعرف المحتضن لهن هوية ولا اسماً

وكل هذا الرهط تسير به عجلة المساخر مفرقعة تنيرها مشاعل الغاز الملتهب ، وقد تحكم السكر فى الرؤوس فجمد فيها كل تفكير . ولقد يخيل إليك من حين إلى حين أن هنالك ما يشبه الاحتضان والتقبيل ، وإذا تدحرج أحد من هذه العجلة فما يهتم أحد بأمره ، وهل يهتم لشىء من يرى نفسه خارجاً من عدم سائراً إلى عدم . . . على هذه الوتيرة تسير خيول العربة خبباً وعر رهط المسافرين

إذا كان الدهش هو أول ما يشعر به المنخرط فى سلك الخلعاء ، فما يشعر به بعد ذلك إنما هو الاشمئزاز يقبض على القلب ليجره جراً إلى الاشفاق .

إن ميدان الخلاعة مجلى للقوة أو بالأحرى مجال انقاد القوى ، وذلك ما يجتذب الكثيرين من عشاق المجازفة ، فيقدمون الى هذا الميدان ليبذلوا نفوسهم مبددين ما فيهم من قوى ، فهم كالفارس المنيد يمتطى فرساً جموحاً وينطلق غير شاعر بما يعلق من لحمه ومن دمه على أشجار الطريق ولا بالشرر يتطاير من محاجر الذئاب تتبعه فى الأرجاء المقفرة ولا بالغربان تحوم ناعبة فوق رأسه

لقد سردت الحوادث التى رمت بى إلى هذه الحياة ، فعلى الآن أن أقص ما رأيت فيها :

لأول مرة رأيت فيها المجتمعات التى يدعونها مراقص مقنعة ، كنت سمعت من يقول إن فيها دعارة القصور وإن إحدى ملكات فرنسا تنكرت فيها بزى بائعة أزهار ، ولكننى ما شهدت فى هذه المراقص إلا بائعات أزهار متنكرات بزى خادمات الجنود . كنت أحسب أننى سأجد فيها الدعارة فكذب الواقع حدسى ؛ وما يمكن أن ندعو دعارة هباباً متساقطاً من دخان ، ولا اللكم والصفع ، ولا فتيات سكارى منطرحات كالأموات على ركام الكؤوس المحطمة

لأول مرة رأيت فيها فسق المائدة ، كنت سمعت أحاديث الشراهة فى الولائم وبلغنى اسم فيلسوف يونانى أقام دين الفطرة على لذة الحواس ، فكنت أتوقع أن ألاقى فى هذه الولائم شيئاً من الاستغراق المنسى إذا امتنعت الأفراح الحقيقية فيها فما وجدت إلا أقبح ما فى الحياة : ما وجدت إلا مللاً يحاول أن يتمتع بالعيش ، فكان هنالك قوم يسودهم الخلق الانكليزى يتحدثون عن أعمالهم ويجدون التسلية فى هذا الحديث وهم يقدرون ملذاتهم على ما بذلوا من مال ؛ وعلى هذه الوتيرة تدور عليهم رحى الحياة

لأول مرة رأيت فيها بنات الهوى بعد أن كنت سمعت قصة (اسبازى) يحتضنها (السيبياد) وهو يتناقش مع (سقراط) ؛ كنت أتوقع أن أرى انطلاقاً وقحاً فيه شىء من المرح وخفة الروح ؛ كنت أتوقع أن أشاهد ما يغلى ويطفو كحباب الراح المتقة فما وجدت إلا شفاهاً متراخية وعيوناً جاحظة وأنامل متشنجة

لأول مرة رأيت فيها السيدات المتهتكات . كنت قرأت (بوكاس) و (باندللو) بعد أن طالعت (شكسبير) ، فكنت أتخيل هؤلاء السيدات ملائكة جحيم يواجهن الحياة بالرشاقة والمرح ، وكنت أرسم منهن أشكالا تنم عن الجنون فى الخيال ، وقوة الابداع والقحة بعيون ساحرات تثير برشقة لحظ فاتر أحاديث شجون وغرام . كنت أحسبهن فى الحياة تموجا واهتزازا كالـهات البحار ، وأراهن مرنحات ثملات ، أو منطرحات سكرا من خمرة الحب والهيام . هذا ما كنت أتصور وما كنت أتوقع أن أرى ، فما رأيت إلا محررات رسائل وضاربات مواعيد ، دأبهن إرسال الأكاذيب لرجل مجهول بعد رجل مجهول ، وستر الدنايا بالرياء ، وما يرمين إلا الى هدف واحد : الاستسلام والنسيان

لأول مرة ارتدت فيها أندية الميسر ، وكنت سمعت الأحاديث عن جداول الذهب والثروات بلحظة من الزمان ، وعن سيد من قصر هنرى الرابع ربح بورقة واحدة مائة ألف ريال وهى قيمة ما كان يرتدى من ملابس ، فما رأيت فى هذه الأندية إلا دكان أثواب يستأجر منه العمال المرتدين قميصا ليس لهم سواه ثوبا بعشرين درهما لتمضية سهرة واحدة ؛ وما رأيت إلا جلاوزة يحرسون باب ناد فيه رهط الجائين يقامرون مجاذفين بطلقة عيار نارى على أدمغتهم مقابل رغيف ...

لأول مرة رأيت فيها مجتمعا للخاصة أو للعامة من ثلاثين ألف بغى حاملات اجازة ببيع أعراضهن فى باريس ؛ وكنت سمعت بكل فيالق الفحشاء فى كل زمان من عهد بابل الى أيام روما ، وقد كتبت على أبوابها « اللذة » فما رأيت لا فى هذا الزمان ولا فى الزمان المنصرم إلا كلمة «البغاء» وما حفرت هذه الكلمة على الذهب المتوهج بشعاع الشمس بل على الفضة التى تبدو لعينيك باهتة كأنها مغشاة بكدورة أنوار الليل

لأول مرة رأيت فيها الشعب ، كان ذلك فى صبيحة المرفع (أربعاء الرماد) عند منحدر (كورتيل) وكانت السماء قد أمطرت الأرض رذاذاً منذ المساء فأصبحت الأزقة كأنها مزالق أوحال ، وكانت المجلات الحاملة رهط المقنعين تمر متدافعة بلا انتظام بين المتفرجين على جانبى الطريق ، وهم واقفون رجالا ونساء يعرضون أنواعاً من القبيح على الرصيفين . وكانت تلمع فى محاجر هؤلاء الناس عيون أعارتها الخمر لونها فبدت فيها نقمة الوحوش الكاسرة . وما كانت صدمات المجلات تنال صدورهم لترجعهم قيد أنملة الى الوراء ، وكنت أنا واقفاً على مقدم إحدى هذه المجلات المكشوفة فكنت أرى من حين الى حين أحد المتفرجين يتقدم نحونا من صفه وهو بأسماله ليوجه إلينا أفظع الشتائم ثم يرمينا بحفنة من الدقيق ويعود أدراجه . وما طال سيرنا حتى بدأ الناس يرشقوننا بكتل من الأوحال فما تراجعنا بل داومنا التقدم نحو جزيرة الغرام وغابة (رومانفيل) موطن العناق والسرور . وسقط أحد أصحابنا عن مقعد المجلة الى بلاط الشارع فهرع الشعب إليه قاصداً تحطيم عظامه ... فترجلنا وأحطنا به لوقايته وكان حامل النفير يتقدم المجلات ممتطيا جواده فرشقه الشعب وقد فرغ ما لديه من الدقيق بحجر خدش كتفه

وما كنت سمعت بمثل هذا من قبل ، فبدأت أتعرف حالة العصر الذى نعيش فيه

(يتبع) فليكس فارس